

المدينة في شعر عثمان لوصيف
The town in the poetry of Osman Lossif

الدكتور: السعيد قرفي

قسم اللغة والأدب العربي، جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي ، الجزائر
saidguerfi039@gmail.com

تاريخ القبول: 2018/09/24

تاريخ الإيداع: 2018/09/22

الملخص :

أقف في عدد من قصائد الشاعر عثمان لوصيف على توظيف خاص للمدينة، يتجلى ذلك في علاقة الشاعر بالمدينة الجزائرية في ظل رؤية شعرية محددة تشكل فيها علاقة الشاعر بالمدينة، وتلك العلاقة في أغلبها وجدانية صوفية تطبع تلك الرؤية بتلوينات جمالية وفكرية، تأخذ فيها بعدا مغايرا.

Abstract:

A number of poems Othman Lossif are choract ezide by twon employment of the twon, reflected in the relationship of the poet to the Algerian twon in the light of a specific poetic vision in which the relationship of the poet to the twon, and that relationship is mostly emotional and mystical featured by that vision color and aesthetic, taking a different dimension.

تمهيد:

شكلت المدينة هما شعريا عند الشاعر المعاصر، وبغض النظر عن موقفه الجدلي اتجاه المدينة الذي يتلون بتلوينات عاطفية، أو تكون وراءه رؤية أخرى بحسب البواعث التي تدفعه إلى ذلك (1)، فإن للشاعر لوصيف طريقته الخاصة في تجسيد ذلك الهم الشعري، وهي طريقة تقوم على بناء جسور علاقة بينه وبين المدينة، تتجسد فيه المدينة في صورة امرأة يخاطبها ويفتن بها، فيبثها أشواقه، هائما في حياها، أو يرتفع بها إلى مقام أسطوري وأحيانا أخرى يتسامى بها فيليبسها فساتين الجمال والافتتان، وكل ذلك يتحقق عبر لغة ذات مقومات شعرية وطاقات إبداعية،

أولا : المدينة في أفق الرؤية :

يبدو أن الشاعر لوصيف في علاقته بالمدينة الجزائرية، يتجه إلى صناعة مواقف ذات خصوصية، ينتفي فيها الحديث عن فضاءات المدينة في إطارها الحضاري المادي الذي ينتج عنه "الإحساس بالزمن المقلق، وفي زحمة هذا الإحساس المقلق تضيق الأحاسيس الحقيقية، ويصبح لا قيمة للإنسان كإنسان".

فخصوصية الموقف المتشكل في علاقة الشاعر بالمدينة الجزائرية يبرز في تفجر المشاعر الحميمية التي تنهمر بنابيع عشق ودفء وطمأنينة .

يقول لوصيف في قصيدة "وهران" (3)

ومشينا يدا في يد نزرع الرمل عشقا وعتقا
مشينا.. وكانت فراشة قلبي ترف
ومرأة عينيك عبر الرذاذ تشف
وكان الأصيل يطوقنا بالأغاني
ويكسر عبر خطانا قواريره العسليه
فيبرعم حلم وتشرق دنيا
ويختلج الماء عبر المدى حبقا وحميا

إن حميمية المشاعر في علاقة الشاعر لوصيف بمدينة وهران بادية في عباراته، فعبارة (ومشينا يدا في يد نزرع الرمل عشقا وعتقا) تختزن تلك المشاعر الحميمية التي تفيض على الرمل عشقا وعتقا، تتعده يدا العاشقين فيخرج نباته بعد حين (فيبرعم حلم وتشرق دنيا ، ويختلج الماء عبر المدى حبقا وحميا) .

وليس ذلك منتهى القرار الذي تستقر فيه تلك المشاعر الحميمية، فتتحول إلى حالة صوفية وجدانية غالبة، مؤشرات السكر والغواية(4):

إلى أين يمضي بنا السكر يا عشق
أين حدود غوايتنا
أين.. أين القرار؟

وتفضي تلك الحالة الصوفية الوجدانية، إلى حالة من الكشف، يتراءى فيها للشاعر الجمال المطلق للمدينة وعظمتها، يقول لوصيف(5):

سلة من نجوم يراودها الماء
أيقونة تتحمم بالزنجبيل
بنفسجة تتسلق قلبي وترسم تاريخها الشبقي

ومن مزج التوت باللوز،

والتين بالمولز

والرزافي المعتق باليوسفي

وسواك جنية بشريه ؟

فهده الصور الجزئية وغيرها ، والتي تتوالى عبر السطور ، تشكل الصورة الكلية التي تفصح في نهاية المطاف عن جمال المدينة المطلق وعظمتها ، فيدفع ذلك الشاعر أن يعلن حبه (أحبك..أه أحبك) وفي لحظة انبهار صوفية عارمة(6) :

أية شمس كستك سنى وألوهية

وحبتك غنى ، حميمية

أي غيب تمخض عنك

وأي إله أفاض عليك نفاثسه اللؤلؤيه ؟

ولأن هذا الجمال مطلق ، فهو خالد ، لا يدوى ، ولا يندثر(7) :

اليوم ينحل كل سحب

ويسقط كل حجاب

ولا شئ إلا جمالك ..لا شئ إلا جمالك

ويبدو أن الشاعر لوصيف ، كلما امتلكه جمال المدينة الجزائرية ، يدخل في حالة صوفية ، لأن الصوفية " قد عولت على الخيال ، فهو وحده الذي يتسع لوجود المحال فيما يبده من الصور والأشكال ، وهو الذي ينبسط لاستيعاب صور التجلي التي لا ينالها الحصر ولا يحيط بها العد ، ولا يظفر بتكرارها الإمكان"(8) ، ففي تلك الصور والأشكال ، تفيض أنهار متدفقة من المشاعر الحميمية التي لا يمكن أن تلتطف من حدتها الذكريات التي تسكن قلب الشاعر ووجدانه ، لأن سحر مدينة وهران أقوى يقول لوصيف(9) :

تذكرت حيي القديم

سماواتي السندسية ، شبابة الوحي

بدري وساحرة الليل ..لكن سحرك أقوى

تذكرت أمي المريضة

أفراضي الزغب ، سيدة الدار..لكن سحرك أقوى

إن علاقة الشاعر لوصيف بالمدينة ، تتشكل في ظل رؤيا صوفية ، فتكون المدينة للشاعر ملاذا للدفاء والطمأنينة ، وطرفا في تغذية مشاعر الحب والحميمية ، بدلا من أن "تتحول إلى قتل الحب وقهر العواطف ، وإشاعة الحرمان ، حين يتخذ الشاعر من المدينة إطارا لتجربة الحب نفسها ، فيرى وجهها باعنا على الندم والسأم والأحزان"(10)

يقول لوصيف(11) :

ضمدي جرحي النازف

انبسطي..مسيحي جبتي

وأعيدي لعيني داك الشعاع الحليبي

والأفق الرحب، والصحو، والمرتقى

إن من خصائص رؤية الشاعر للمدينة ، أنها تنهض على تأنيث المكان "ويصبح في استطاعتنا أن نسقط صفات المرأة على المكان ، أي تأنيث المكان فتتحول أرجاء المكان إلى أرواح أنثوية فيها وهج الأنوثة وخصوبتها" (12)، وهو ما يحول المدينة إلى ذلك الملاذ الذي يشعر فيه الشاعر بالدفء والطمأنينة فيتحقق تواصله معه ، وهو "تواصل يقوم على الفيض والدفق الدائم ، ومن ثم التوحد الأبدى مع روح الوجود بعد رحلة شاقة تعقبها سعادة غامرة لا يتذوقها إلا أصحاب المقامات العالية" (13)

يقول لوصيف في قصيدة "سطيف" (14) :

لكنني حين ناديت عبر الدروب

سطيف سطيف

وجدتك بين يدي بثوب الزفاف

فأيقنت أن الغرام سطيف

وأن العروس سطيف

ضممتك فانهمر الثلج

وغنت عيونك

ثم ارتمينا على الريش ملتهبين

ونمنا هنالك تحت الندى شفة في شفه

فمدينة سطيف ، تشكل موضوعاً شعرياً في إطار تجربة حب ، ويتخذ الشاعر من الإيقاع طريقاً لتجسيد التجربة ، حينما يجعل "إيقاع وجدانه من إيقاع سطيف ، فتكون سطيف هي مصدر شعرية النص و إيقاعيته المطربة ، التي تهز العاطفة وتتسارع معها النبضات وتنقبض في لحظات الغرام الطافحة أين يتحقق التناغم في لحظات صوفية حميمية ملتهبة" (15)

إنه من الواضح جداً ، أن الشاعر لوصيف ، ينأى في معالجته لموضوع المدينة عن المنظور الاجتماعي أو السياسي ، فلانشعر في حديثه عن "إيقاع الحياة وما فيها من الزحام والآلية والأطر المادية والأبنية الشاهقة والضجيج التي تؤثر سلباً داخل الشاعر المعاصر وصهره في بوتقة الحزن والاعتراب" (16) ، بل نشعر بحديث حميمي يبين عن "عمق العلاقة بين الشاعر والمكان وتلاشي الحدود بين المرأة والمدينة ، وتتكشف الدلالات الرمزية للمكان من خلال الصفات التي يسقطها الشاعر على المدينة" (17) ، وهو ما يقود إلى آفاق جديدة في علاقة الشاعر بالواقع

، وانفتاحه على الوجود " (18)، تكشف عن تفرد في الكتابة الشعرية في موضوع المدينة عند عثمان لوصيف .

ثانيا : التشكيل

الحديث عن التشكيل، هو حديث " يبدأ من توظيف اللغة ويمتد إلى بناء القصيدة من حيث هي كل متكامل" (19)

1. الأثر الصوفي

إن التشكيل في تجربة شعر المدينة عند عثمان لوصيف ، لا ينفك عن تجربته الصوفية، لذلك يبدو الأثر الصوفي جليا في تجربته الشعرية ،يزيدها عمقا ،ويضفي عليها دلالات رمزية ،تكشف عن تحول في علاقة الشاعر بالمكان ،ومن ثم الوجود برمته .

وتبرز التجربة الصوفية أثرا في شعر المدينة من خلال :

أ. تأنيث المكان :

يتأنت المكان في شعر لوصيف ، وتصير المدينة امرأة يسقط عليها الشاعر كل صفات الأنوثة ،فتتوهج أرجاؤها وتخصب أرضها، وتنضب بمشاعر الدفء والطمأنينة ،ويتحول المكان/المدينة إلى فضاء " للتأمل وانكشاف في الوجودين الحقيقي والفني " (20)

في قصائد المدن ، في شعر لوصيف ، يتأنت المكان ، وتصير المدينة امرأة ، تتحول إلى بنية رامزة مشحونة ، ينفذ منها الشاعر إلى واقع الحياة وواقع الفن ، يقول لوصيف (21) :

انبسطي ..مسي جيبيتي

وأعيدي لعيني داك الشعاع الحليبي

والأفق الرحب ، والصحو ، والمرتقى

فرمزية المرأة تبرز في كونها تشكل "ظلا يستظل به هروبا من فظاعة واقع يبعث على التوتر والقلق والإحساس بالغرابة ، وهو ما يصنع تلك الفجوة في أسلوب الشاعر بين نفور من واقع فظيع وتتطلع إلى استشراق ولادة جديدة" (22) .

وفي قصيدة سطيف التي يقول فيها الشاعر (23) :

ضممتك فانهمر الثلج

وغنت عيونك

وابتدا العرس

ثم ارتمينا على الريش ملتهبين

ونمنا هنالك تحت الندى شفة في شفه

لا تبدو دلالة رمز المرأة باعثة على الدفء والطمأنينة واللحظات الغرامية الطافحة فقط ، كما يبدو من تشكيل العبارة الأخيرة ، بل إنها تكشف عن رؤية ينفذ منها الشاعر إلى واقع الحياة،

حينما ينقذ "الضوء الداخلي الإنسان، الذي يتغلب على المهرجة والسرعة والأضواء، وتنفلت المدينة من برائن الزمن وعقارب الساعة التي تلقي بإحساسها الوحشي داخل إنسان المدينة" (24)

إن تأنيث المكان في شعر لوصيف، يغنيه بدلالات رمزية، تسهم في زيادة منسوب شعرية النص، حين تبرز المدينة/ المرأة على قدر كبير من الفاعلية في تموين العلاقة عاطفية عالية في السياق الشعري، ويبرز ذلك في قصيدة "الجلفة" (25):

وأنا عاشقك الأكبر
ها جئت لألقي بين يديك
قرايبي وبقاتي النقيه
فخذي واحدة منها ولا.. لا تنكريني

.....
ثم مدي شرشف الفستان
كي أسجد للحب
وأدعوك
أيا أسطورتني الفيروزجيه
فلقد طوفت في البر
وفي البحر
إلى أن ساقني الله
إلى خيمتك العرياء

.....
غطيني بجفنيك
وكوني لي أما
فأنا طفل يتيم
قدفته النار... والريح العتية

فمدينة الجلفة تتحول إلى امرأة، يخاطبها موظفا أساليب النداء والأمر يرتفع بمقامها إلى مقام الأسطورة، أو أم عطوف تحنو على طفل يتيم قدفت به الأيام إلى واقع بائس أليم، وكل ذلك يسهم في تشكيل القصيدة فنيا، ويتمخض عن دلالات ذات أبعاد مغايرة في علاقة الشاعر لوصيف بالمدينة، تنتهي بالوقوف بين يديها بالقرايين وبقايات الزهور، وكأنه في حضرة الإله المعبود، ينتهي به إلى السجود، فالدعاء، بعد رحلة شاقة أشبه في مغامراتها بمغامرات أبطال الأسطورة والملحمة.

وهذه الاستراتيجية في التشكيل ،نلمسها كذلك في قصيدة "الأغواط" (26):

سافرت في الضفائر
سافرت في الأساور
سافرت في العنبر والأمشاط
في رنة الخلخال
في الفصوص
في وسوسة الأقراط
سألت عن لؤلؤتي
فكانت الأغواط

فاستراتيجية تأنيث المكان، أحد مقومات بناء القصيدة ،وهذا البناء يتحقق في تجربة سفر في هذا المكان / المرأة، تتولد من خلاله " لغة جديدة وعلاقات جديدة" (27) .

إن تأنيث المكان ، إذن ، هو أحد تجليات التجربة الصوفية في شعر المدينة عند لوصيف ،يفتح أمام الشاعر باب المغامرة اللغوية والجمالية في بناء علاقته بالمدينة فتأنيث المكان في بنية النص " يحقق دينامية وحساسية شعرية عالية ،ويسهم في تموين شعرته بطاقة عاطفية مشعرنة تزيد من فاعليته الجمالية في مساحة النص وتضاعف من قوة التماسك النصي"(28)

ب . اللغة

لا نود في هذا المقام الوقوف مطولا عند لغة المتصوفة تفصيلا في خصائصها بقدر ما نريد أن نبرز وظيفتها في تشكيل نص شعر المدينة عند لوصيف ، "فاللغة هي عنصر فعال في التجربة الصوفية ، إذ تتعالى اللغة الصوفية في دلالاتها معتمدة على المجاز وعلى السياقات الرؤيوية ،على فعالية الرمز باعتباره أرقى وسيلة للتعبير لدى المتصوفة"(29) .

وحضور اللفظ الصوفي في نصوص شعر المدينة عند لوصيف "هو حضور ، يبدو في القصيدة مترابطا مع باقي ألفاظ لغتها غير أنه يتميز عن ألفاظ اللغة التي تحملها في عباراتها ،وجملها ،وأسلوبها ،بما يوجد فيه من اصطلاح صوفي ،يخدم المضمون الشعري"(30) .
وتحقيقا للغاية المرجوة من حضور اللغة الصوفية ووظيفتها في نص شعر المدينة نقف عند نماذج مختلفة من هذا الشعر .

يقول لوصيف(31):

أفتت قلبي وأحرقه في بخورك
أبكي ..أصلي على حجرك الحق
ألثم خصلة ضوء ترفرف ذاهلة

أتوسد ركبتيك الأثوية
 أنتشي ..ثم أنهض
 أحصي فوانيس عينيك
 يصعقني النور والنشوات
 وأغرق في وهج الرعشة السرمديه

اللغة الصوفية حاضرة في هذه السطور ،وهي لغة تكشف عن هواجس رؤيوية تحمل في طياتها مضامين جديدة في رؤية الشاعر للمدينة ،هذه المضامين تتعلق بمقامات الوجد والفناء ،بكاء وصلاة وطقوسا تعقبها لحظة انتشاء ثم النهوض ،فالصعقة .
 وتلك أحوال لا يمكن أن تنهض بها إلا مثل هذه اللغة في سياق شعري لتضع علاقة الشاعر بالمدينة في "أقصى نقطة من التوتر الروحي المرتجى"(32) في قوله : (وأغرق في وهج الرشة السرمديه).

وفي قول الشاعر(33) :

وأنا عبدك المتصوف فيك
 توزعت بين الشظايا
 وضيعت خارطي في غبار المرايا
 وحين رأيتك أدركت أن الحبيبة أنت
 وأن الإلهة أنت
 فهل تقبلين صلاتي ولو ركعتين ؟
 وهل تقبلين بكائي ولو دمعتين ؟

يحضر لفظ الرؤيا في صيغة فعل الزمن الماضي (رأيتك) ،و"ينسجم مع مفهوم الصوفية للرؤيا ،فهي مشاهدة قلبية مرت وانتهت ،وتركت في نفس الصوفي الذي يبقى في شوق إلى استعادة تجربتها معبرا عن شوقه بمحاولة التذكر والاسترجاع"(34) .
 ويتبع فعل الرؤيا ،فعل الإدراك ،فتتجاوز الذات حالة التمزق والضياع في لحظة تجليات صوفية ،ومن هنا يكون المكان / المدينة جسرا عبور هذه الذات إلى الوجود برتمته ،فتنتفح الذات على روعة هذا الوجود .

إذن ،هي رؤية جديدة في علاقة الشاعر بالمدينة ،تتشكل بلغة صوفية قادرة على التعبير عن مضامين تلك الرؤية ،لأنها لغة "لم تعد مجرد أداة إنها انكشاف الوجود الأصلي وطريقة حضوره"(35) .

وفي قصيدة "الجلفة" تبدو اللغة الصوفية قادرة في سياقاتها الشعرية على التعبير عن هواجس رؤية الشاعر في علاقته بالمدينة ،يقول لوصيف(36) :

هذه قيثارتي تبكي
وهذا وتري العاشق يتزف
ها أنا أرنو إلى عينيك مشدوها
ومعتوها
وها أنا أمشي إلى سدتك العليا

.....
فلنغن الحب صنوين إذن
ولنملاً الإبريق راحا
نحتسي منها .. ونرشف

إن اللغة الصوفية ، في هذا النص ، تكشف عن رؤية الشاعر في بناء علاقة جديدة بالمكان /المدينة ، يبتعد في خصائصه عن المكان الأرضي ، ليتماهى مع "العالم المطلق الإلهي السماوي بانفتاحه وتوحده ، فيكون أوسع وأكثر مناسبة لإقامة الذات الشاعرة المعاصرة من عالم التقدمي البشري الأرضي" (37) . فالمكانان في التجربة الصوفية متغايران ، "فتركيبية العالم المطلق ، الانفتاح والتوحد ، وتركيبية العالم التقدمي البشري الانغلاق والتمزق" (38) . وتنحو اللغة الصوفية في قصيدة "الأغواط" منحى آخر في تشكيل النص يقوم على تجربة السفر في المكان ، يقول الشاعر (39) :

سافرت في الضفائر
سافرت في الأساور
سافرت في العنبر والأمشاط
في رنة الخلخال
في الفصوص

.....
فاللغة الصوفية حاضرة في صيغة فعل الزمن الماضي (سافرت) الذي يعبر عن بنية الرحلة في التجربة الصوفية ، وكان هذا الحضور عبر تقنية التكرار العمودي لتجعل من السفر رحلة لا تتوقف في أرجاء المكان الذي يتحول في هذه التجربة إلى أرواح أنثوية تشع بوهج الأنوثة وخصوبتها .

وهكذا تكون المدينة للشاعر ، أكثر الأماكن ألفة ومحبة وصفاء على نقيض كثير من الشعراء المعاصرين الذين عبروا في نصوصهم عن مشاعر الوحشة والاعتراب فيها . إنه منحى آخر ، تنهض به هذه اللغة ، ليعبر من خلالها الشاعر لوصيف عن رؤيته للمدينة .

وعموما فإن للصوفية أثرها في التشكيل ونقل رؤية الشاعر للمدينة ، من خلال تأنيث المكان ، وتوظيف اللفظ الصوفي ، وقد أسهم في منح نصوص شعر المدينة هويتها رؤية وتشكيلا .

2. الصورة

الصورة من أقدر الوسائل على نقل رؤية الشاعر ، وأخطرها في تشكيل البناء ولذلك يخضع تشكيل الصورة إلى خصوصية التجربة الشعرية التي يمر بها الشاعر ففيها "تتجسد خبرته الجمالية وحقائقه النفسية والفكرية والاجتماعية" (40) ، مما يبين عن خصوصية تشكيل البناء في النص الشعري ، ويمنح الصورة فعالية في التشكيل وتبلغ فيها حرية الشاعر مداها في التعبير عن رؤيته الشعرية .وتلك الصورة تتشكل وفق معطيات تقتضها خصوصية رؤية الشاعر لوصيف في علاقته بالمدينة الجزائرية .

ا. الصورة العاطفية

يدخل في تكوين هذه الصورة المعطيات الوجدانية ، حين تتحول المدينة في شعر لوصيف إلى امرأة .

يقول لوصيف في قصيدة "الجلفة" (41) :

آه فكي شعرك المظفور

غطيني بجفنيك

وكوني لي أما

فأنا طفل يتيم

قذفته النار..والريح العتية

إن الصورة المتكونة تعبر عن علاقة الشاعر بالمدينة ، وتقوم في تكوينها على مشاعر الأمومة التي تتدفق حنانا على ابنها ، وتكون له حصنا من شرور واقع بائس أليم وحينها تكون رحلة الشاعر إلى المدينة التي ساقه الله إليها طلبا للأمان والحنان في كنفها .

وأما قول الشاعر في قصيدة "عرس البيضاء" (42) :

فنوغل في شبق الماء مشتبكين

ويطارحنا البحر خمرا بخمر

وجمرا بجمر

ويستيقظ الزمن الباطني

لتركض على جسدينا الفصول

لتنم القواقع

ولتتدل الغصون

فالصورة الشبقية هي طريقة الشاعر في التعبير عن رؤيته وعلاقته بالمدينة ، وتفويض تلك الشبقية غراما وحميمية ، وهي عوامل مقاومة لواقع جذب ، نشدانا لعالم خصب ، ولعل في ذلك دلالة على وقوع الذات تحت وطأة الجذب الذي أصاب العلاقات الإنسانية فماتت المشاعر في نفوسها .

وليس أنصع من الصورة العاطفية في قول لوصيف(43) :

ضممتك ، فأنهمر الثلج

غنت عيونك

وابتدأ العرس

ثم ارتمينا على الريش ملتهبين

ونمنا هنالك تحت الندى شفة في شفه

فالمدينة امرأة كاملة الأنوثة ، فهي الغرام ، وهي العروس ، في أحضانها تلتهمب المشاعر ، فتبعث على الدفء والطمأنينة .

تلك هي مدن الشاعر كما تبرزها الصور العاطفية ، يقع في غرامها ويعبر من خلالها عن تداعياته النفسية والعاطفية .

ب . الصورة الجمالية

وتتكون هذه الصورة من المعطيات الجمالية ، يعبر بها الشاعر عن إعجابه بجمال المدينة الجزائرية وانتهاره بها .

وقد يسقط الشاعر على المدينة الجمال الأنثوي في تعييناته الحسية ، أو يسقط عليها جمال الطبيعة في صفائه .

يقول الشاعر(44):

يا امرأة تنتهي فيقال الجزائر

لا زال خصرك يمتد في شهوة الأرض

لا زال شعرك يرحل في ملكوت الندى

وهنا يقع خيال الشاعر على التعيينات الحسية في المرأة ، متمثلة في الخصر والشعر لينسج صورته الخيالية التي تعكس رؤيته للمدينة ، ويزيد في نضارة هذه ، نضارة هذا الجمال الذي لا يغالبه الزمان ، فالخصر لا زال يمتد في شهوة الأرض ، والشعر لا زال يرحل في ملكوت الندى .

وفي مقام متقدم ، يبدي الشاعر إحساسا آخر بذلك ، وهو التلذذ في قوله(45) :

لازلت أرتشف التوت من شفقتك

وفي قصيدة "الأغواط" التي يقول فيها ألساعر :

سافرت في الضفائر

سافرت في الأساور
سافرت في العنبر والأمشاط
في رنة الخلخال
في الفصوص
في وسوسة الأقراط
سألت عن لؤلؤتي
فكانت الأغواط

يكون سفر الشاعر لوصيف في عالم الجمال الأنثوي بحثا عن لؤلؤته، ولما سأل عنها كانت الأغواط .

وأما في قول الشاعر(46) :

أنت هسهسة النهدي تحت ارتفاع القميص المخدر
تغتغفة الخصر كسره الغنج
تنغيمة الخطوات الرشيقفة فوق الرصيف
رفيف الجفون مكحلة بالجنون
وهفهفة الخصلات الشذيه

نوع آخر من الجمال، تهض به الصورة الصوتية، حيث وظف الشاعر أصواتا لغوية (هسهسة، تغتغفة، تنغيمة، رفيف، هفهفة)، ترتبط بعناصر جمالية أنثوية (النهد، الخصر، الخطوات، الشيقفة، الجفون، الخصلات)، ومن خلال هذا التوظيف حاول الشاعر "التعبير عن مواطن الجمال لهذه الأمكنة بلغة الصوت الذي أعطى اللغة الشعرية دعما جديدا"(47).

إن الصورة الجمالية القائمة على المعطيات الجمالية الأنثوية، هي وسيلة من وسائل الشاعر لوصيف في بناء علاقته بالمدينة الجزائرية، وطريقته في تشكيل رؤيته لها شعريا. وللطبيعة بجمالها الفاتن حضورها في تشكيل تلك الرؤية، يقول الشاعر(48):

والشمس تغرق
من هرق الزنجبيل على نمش الرمل
من فتت البرتقال على جمر نهديك
من غمس البحر في عسل الصبوات
ومن ساق نحوك هذا المتيم
كانت مفاتن جسمك تزداد عند التوهج
والنارتلتهم النار
كان اللقاء

وكان الجنون الجنون

فالشاعر لوصيف يعبر في هذه القصيدة عن شدة افتتانه بمدينة الجزائر العاصمة وعلى غير عادته ، يجعل عنوان القصيدة "عرس البيضاء" ، ليفضي به ذلك الافتتان إلى علاقة حب صوفي مع المدينة .

وانفعال الشاعر بجمال المدينة يصوره في لحظة غروب الشمس ويضع تفاصيله من عناصر الطبيعة ، وفي سياق استفهامي ، يحيل ذلك الجمال إلى جمال أبدي مطلق .

ويتكرر هذا الانفعال وبأسلوب الاستفهام في قصيدة "وهران" ، يقول الشاعر(49):

ومن مزج التوت باللوز

والتين بالموز

والرزافي المعتق باليوسفي

وسواك جنية بشريه ؟

فالطبيعة حاضرة بمكوناتها المختلفة ، تمتزج فتستوي جمالا مهرا ، بأسر الشاعر فلا يملك مقاومته إلا بالأسئلة(50):

أية شمس كستك سنى وألوهية

وحبتك غنى ، حميمية

أي غيب تمخض عنك

وأي إله أفاض عليك نفائسه اللؤلؤيه ؟

إذن ، تلك هي طريقة الشاعر في التعبير ، يستخدم لغة الاستفهام ، لأنه يرى فيها أكثر قدرة على نقل الموقف الشعري والبلوغ به إلى الذروة المدبية التي تتجمع فيها الانفعالات المتولدة من شدة الانبهار .

وهكذا يستثمر الشاعر دوال الفتنة والجمال ، سواء أكانت من حقل الطبيعة أو من حقل المرأة ، في تشكيل الصورة الجمالية التي تعبر عن رؤيته للمدينة الجزائرية .

ومجمل القول ، فالمواقف التي تبناها الشاعر لوصيف في علاقته بالمدينة الجزائرية ، هي مواقف متأثرة بالتجربة الصوفية ، وهذه التجربة كان حضورها واضحا في تأنيث المكان وتحويله إلى امرأة ، وفي توظيف اللغة ، ولذلك كثيرا ما كانت هذه العلاقة تعبر عن تجربة حب صوفي مفعمة بالمشاعر الحميمية والانفعالات الجمالية ، وهو موقف مغاير لكثير من مواقف الشعراء المعاصرين "الذين رفضوا المدينة واتخذوا مواقف التمرد والكراهية تجاهها"(51).

الهوامش

(1) ينظر: فاروق عبد الحكيم درباله ، الموضوع الشعري ، دراسة تحليلية في الرؤية والتشكيل ، ايتراك للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ط1 ، 2005 ، ص385

- (2) السعيد الورقي، لغة الشعر العربي الحديث ، مقوماتها الفنية وطاقاتها الإبداعية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ، ط3، 1984، ص268
- (3) عثمان لوصيف، براءة، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، دط،، 1997، ص49
- (4) المصدر نفسه ، ص49، 50
- (5) المصدر نفسه، ص50، 51
- (6) المصدر نفسه، ص51
- (7) المصدر نفسه، ص52
- (8) وافي سليطين، الشعر والتصوف، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، ط1، 2013، ص47
- (9) عثمان لوصيف، براءة، براءة، ص55
- (10) فاروق عبد الحكيم درباله، الموضوع الشعري، ص412
- (11) عثمان لوصيف، براءة، ص12
- (12) عبد الحميد هيمة، الخطاب الصوفي وآليات التأويل، قراءة في الشعر المغربي المعاصر، دار الأمير خالد، قسنطينة، 2014، ص447
- (13) المرجع نفسه، ص449، 450
- (14) عثمان لوصيف، اللؤلؤة، دط، 1997، ص11
- (15) السعيد قرني، بناء الأسلوب في شعر عثمان لوصيف، دكتوراه (مخطوط)، تخصص بلاغة وأسلوبية، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، السنة الجامعية 2017/2018، ص53، 54
- (16) فاروق عبد الحكيم درباله، الموضوع الشعري، ص399
- (17) عبد الحميد هيمة، الخطاب الصوفي وآليات التأويل، ص452
- (18) المرجع نفسه، ص454
- (19) جابر عصفور، رؤى العالم، عن تأسيس الحدائث العربية في الشعر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2008، ص104
- (20) محمد بنعمارة، الصوفية في الشعر المغربي المعاصر (المفاهيم والتجليات)، شركة النشر والتوزيع، المدارس، الدار البيضاء، ط2، 2000، ص59
- (21) عثمان لوصيف، براءة، ص62
- (22) السعيد قرني، بناء الأسلوب في شعر عثمان لوصيف، دكتوراه (مخطوط)، ص312
- (23) عثمان لوصيف، اللؤلؤة، ص11
- (24) فاروق عبد الحكيم درباله، الموضوع الشعري، ص398
- (25) عثمان لوصيف، أبجديات، دط، 1997، ص29، 30
- (26) عثمان لوصيف، ص11
- (27) عبد الحميد هيمة، الخطاب الصوفي وآليات التأويل، ص447
- (28) محمد صابر عبيد، المغامرة الجمالية للنص الشعري، عالم الكتب الحديث، عمان، الأردن، ط1، 2008، ص220
- (29) محمد كعوان، اللغة الصوفية بين الدلالة المعجمية والدلالة السياقية، قراءة في الخطاب الشعري الجزائري المعاصر، مجلة منتدى الأستاذ، دورية أكاديمية متخصصة، العدد 2، ماي، 2006، ص168

- (30) محمد بنعمارة، الصوفية في الشعر المغربي المعاصر، ص 308
- (31) عثمان لوصيف، براءة، ص 52، 53
- (32) محمد بنعمارة، الصوفية في الشعر المغربي المعاصر، ص 308
- (33) المرجع نفسه، ص 305
- (34) وقيق سليطين، الشعر والتصوف، ص 24
- (35) عثمان لوصيف، أبجديات، دط، 1997، ص 27، 28
- (36) طاهر مسعد الجلوب، بناء القصيدة الحديثة في أعمال عبد العزيز المقالح، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2007، ص 242
- (37) المرجع نفسه، ص 219
- (38) عثمان لوصيف، اللؤلؤة، ص 63
- (39) عناية عبد الرحمان عبد الصمد أبو طالب، التشكيل التخيلي والموسيقي في شعر المقالح، دار الفكر، دمشق، دط، 2009، ص 44
- (40) عثمان لوصيف، أبجديات، ص 30
- (41) عثمان لوصيف، اللؤلؤة، ص 32
- (42) المصدر نفسه، ص 11، 12
- (43) المصدر نفسه، ص 32
- (44) المصدر نفسه، ص ن
- (45) المصدر نفسه، ص 63
- (46) عثمان لوصيف، براءة، ص 54، 55
- (47) محمد كعوان، مجلة منتدى الأستاذ، ص 192
- (48) عثمان لوصيف، اللؤلؤة، ص 32
- (49) عثمان لوصيف، براءة، ص 50، 51
- (50) المصدر نفسه، ص 50
- (51) فاروق عبد الحكيم دربالة، الموضوع الشعري، ص 388